ما قلتهُ لك وحكمك وقدرتك انما هي على الجسم الضعيف الذي بين يديك واما ديني فما لك عليهِ سبيل والله ما اعزلهُ ولو فالني كل مكروه . فامر الملك العادل رحمهُ الله باطلاقهِ واعتذر الى ملك الحبشة . انتهى نص الكتاب

فهذا امرٌ جرى منذ نحو ثمانمئة سنة في هذا القطر وفي هذه العاصمة رآهُ مؤلف هذا الكتاب بعينهِ وسمع ما قيل فيهِ باذنهِ وهو كأنهُ حديث امس وكتب عنهُ كما تكتب عنهُ اليوم . مرَّت ثمانمئة سنة والعادات لم تتغير ولغة الكتاب لم تختلف اختلافاً يذكر

ما هي اللغة[1]

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهورهِ الى معونة الجهاز المخصوص الذي يكون بهِ الكلام وعليهِ فالكلام هو حركة ذلك الجهاز المنبعثة عن مجرد الطبع او المدفوعة بالارادة للتعبير عن حركة من حركات النفس . ينتج من هذا ان الكلام يتنوع باختلاف الشارات التي تدل على الافكار وان تلك الشارات تنقسم الى قسمين طبيعيةٍ وصناعيةٍ

فالاولى هي التي تصدر عن الذات من حيث هي اي بمقتضى وجودها المادي وكل شارات هذا القسم عرضية مثل شارات اليد والرأس والعين وبقية الاعضاء ومثل الاصوات التي ليست الفاظاً والكلام اي النطق

والثانية خارجة عن الذات وهي تحدث من تأثير الانسان في الماديات الخارجة عنهُ وكل شارات هذا القسم جوهرية بمعنى ان لها دواماً طويلاً كان او قصيراً كالاعلام والنقش او الرسم والحفر والكتابة

ومما تقدم يتبين ان الكلام الطبيعي عام لكونهِ مفهوماً بذاتهِ من جميع الناس ومن الحيوان احياناً كما هو الحال بالنظر لشارات الاعضاء واصوات الغضب او الاستحسان من غير ان يكون هناك اتفاق سابق على مفهوم تلك الشارات

وعلى خلاف ذلك الكلام الصناعي او الاتفاقي لانهُ عبارة عن مجموع الالفاظ المخصوصة الموضوعة للمعاني المخصوصة وعن التراكيب او الصيغ الناتجة من تأليف هذه الالفاظ لتوصل الى الذهن بواسطة الاذن او العين معاني مخصوصة متفق عليها

وقد يتأتى ان يكون الكلام الصناعي عاماً اي ان كل الناس يدركون المراد منهُ

(١) خطبة صاحب السعادة احمد فتحي باشا زغلول في نادي دار العلوم

كالوسم مثلاً وعلى هذا يتضح خطأ تعريفهم اللغة بانها اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم والصحيح ان اللغة هي مجموع العادات الخصوصة التي تجري عليها كل امة في التعبير عن اغراضها بواسطة الكلام او الكتابة وتتقدم ببيان معنى الكلام

ولا يصح اطلاق اسم اللغة على ذلك المجموع الاَّ اذا كانت النسبة تامة بين اللفظ ومدلوله لان قوة اللغة متوقفة على شدة المطابقة بحيث ان الاذن او العين ترسم في ذهن السامع او القارىء صورة المدلول كما هي ولا يتم ذلك الاَّ باجتماع شروط ثلاثة

الشرط الاول . ان يكون لكل مدلول علامة خاصة به تدل عليه دائماً ولا تدل على غيره ابداً

الشرط الثاني . ان تكون هذه العلامة قابلة للتغير بتغير المدلول وتبعاً له

الشرط الثالث . انها تكون قابلة للاشتقاق كمدلولها فاذا اشتق منهُ مدلول اشتق منها علامة دالة عليه بالشروط عينها

وبناء على ما تقدم تكون شروط اللغة الحقيقة بهذا الاسم ثلاثة ايضاً

الاول . ان يكون تعبيرها محكماً وذلك عبارة عن تمام المطابقة بين الدال والمدلول ولا سبيل الى هذا الاَّ اذا سهل استعمال اللفظ قدر المعنى ولم يزد المعنى عن اللفظ المستعمل لاجله وهذا الشرط صعب التوفر فما وفقت لغة حتى الآن لنيل هذه المزيَّة اللهمَّ الاَّ لغة علماء الرياضة بل ان اللغات الاخرى لن تنالها ابداً

الثاني . الملابسة وهي الخاصة الموجودة في الالفاظ او التراكيب اي الصيغ تلك الخاصة التي يدرك بها الفاهم نظائر المدلول ونقائضهُ والملابسة تقتضي تحليل الفكر الانساني وذلك غير ميسور عادة في اللغات الاصلية الاَّ نادراً

الثالث . الوضوح التام وهو يرجع للشرطين السابقين ولصناعة ترتيب الالفاظ وتركيب الجمل ترتيباً وتركيباً ينتفي معهما الابهام ويرتفع الشك والالتباس . ومن اللغات ما تميل باهلها الى الاغراب في التعبير وهذا هو السبب في قلتها وتعسر فهمها وكلما كان القول طبيعياً اي بسيطاً ازداد وضوحاً فالبساطة في امثل طرق الكلام على انها طريقة العلم والواقع وهي التي يسهل بها التعبير عن الافكار وحركات النفس كما ينبغي

وكأني بحضراتكم وقد استنتجتم مما ذكرتهُ الى الآن خطر مذهب التجوز او الاشتراك في اللغة وذكرتم انهُ يذهب بجمالها ويخفي من وضوح دلالتها ويجعلها ثقيلة على اهلها بعيدة المنال على طلابها من الامم الاخرى

سمعت في الاجتماعين الماضيين كلاماً كثيراً في اللغات الاجنبية وان لها اصلاً او اصولاً ترجع اليها وتستمد روح التجدد منها فاطلبوا في حين ما يفعلون واما نحن فلا اصل للغتنا ويبنون على هذه المقدمة نتيجة هي انهُ يجب علينا ان لا نعرب كلمة اعجمية لتضيفها الى لغتنا العربية

الحق اني ما فهمت النسبة بين تلك المقدمة وهذه النتيجة فاني انظر الى اللغة اللاتينية التي هي اصل لغات امم اوربا المعروفة بهذا الاسم من فرنساوية وتليانية واندنسية وغيرها فاجدها لغات ممتازة تماماً عن ذلك الاصل بل اجد الفرنساوي من حيث هو لا يعرف كلمة واحدة من اصل لغتهِ وكذلك بقية من ذكرنا وأرى ان كل لغة حية هي لغة مستقلة قائمة بنفسها لها قواعد خاصة بها وتراكيب وصيغ تميزها عن اصلها تماماً فاذا استعاروا لمحدث جديد اسماً من ذلك الاصل فانما هم يستعيرونهُ من لغة اعجمية بالنظر الى لغتهم . الا ترون انهم لا يقصرون الاستعارة على اللغة اللاتينية ويتعدونها الى اليونانية القديمة واحياناً يستعيرون كلمتين من كل لغة كلمة ويخلونهما ويصقلونهما ويدمجون هذا المزيج في لغتهم فيصير جزءاً منها ويفسحون لهُ في كتب اللغة محلاً بين كلمتين اصليتين بحسب ترتيب حروفهِ الابجدية

انهم يعملون اكثر من هذا ان لكل بلد عادات في اكلها وسكناها ولباسها واطوارها ويتبع ذلك وجود اسماء عند قوم لمسميات لا يعرفها قوم آخرون الا ان التجارة وطرق المواصلات تنقل هذه المسميات او تجعلها تشاهد في اماكنها من التاجرين اليها فيرى اهل البلد ما يروق لهم من بعض تلك الخصوصيات لاهل البلد الآخر ولا يجدون من لغتهم تعبيراً على التعبير عنهُ تماماً لكنهم لا يختارون ولا يقصدون الاجتماع لهذا الاجتماع ولا يفترضون شيئاً واحزاباً بل يقدمون على تناول المسمى واسمهِ ويدرجون عليهِ من ساعتهم فيمتزج بلغتهم ويمرنهُ الكل ويتحرَّون في حديثهم ان يلفظوهُ كلفظهم بهِ من اهلهِ . والامثلة على ذلك لا تحصى يعرفها كل من تعلم لغة واحدة اجنبية . هم يعملون ذلك حتى في العلوم فترى الحكيم الفرنساوي وهو يقرر مذهبهُ عندما يأتي على ما يخالفهُ من مذاهب الالمان اذا وصل الى معنى خاص باحدهم لم يفكر ان يعبر عنهُ بغير لفظهِ الالماني وهكذا ثم يذكر بهامش كتابهِ معناهُ

ما كان هذا ليفسد لغة من تلك اللغات ولا يثير عاطفة الحنان والاشفاق عليها بل ما ازدادت لغاتهم بهذا الا طلاوة ويسراً بل تكاد هذه الطريقة تجري عند الامم الغربية عادة لتكون الالفاظ الغريبة عن لغتهم برهاناً على سعة مداركهم ورحب صدورهم لكل نافع وكل مفيد ولتكون دليلاً على مصدر المسمى ومذكرة بجزء من ترجمتهِ

قالوا ان ذلك جائز عندهم لتلاش احرف هجائهم واتحاد صورها واشكالها واما نحن فلا

قبل لنا على عمل ما يعملون لاختلاف احرف هجائنا وصورها واشكالها ولست ارى في هذا الاعتراض الا انهُ دليل احد امرين فاما شعور بعجزنا عن المجاراة لقتور في همتنا او قصور في معارفنا واما ان احرف هجائنا واشكالها وصورها محتاجة هي ايضاً الى الاصلاح لتتمكن من تناول كلمات الغير باشكالها وصورها فنحنا نتطق كلماتهم كما ينطقون ونقابل عنهم كما هم عن بعضهم يقابلون

نحن اما عرب او مستعربون واما اجانب عن لغة العرب او مولدون فان كنا الاولين فلنا حقنا في التصرف بلغتنا كما تقتضيهِ مصلحتنا وان كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام اصحاب هذه اللغة ويكونها ورثناها عنهم بعد ان بادوا فليس من لهُ ان ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لآبائنا من قبلنا وان كنا اجانب او مولدين فمن لهُ ان يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الكد في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان

اخذ العرب العلوم عن اهلها ونقلوها الى لغتهم فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها واخضعوا الغريب منها لاحكامها فأيسرت ودرجت بعد الجمود فكانت لهم نعم المعين على ادراك ما طلبوا من نور وعرفان

نسينا نحن ان زماننا غير زمانهم فكانوا اصحاب حول وطول وذوي مجد وسلطان ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء على انفسنا في عزهم وبعد مفاخرهم وتمكنهم من انفسهم لم يعثروا بلغتهم فنفروا من العجمة لانها عجمة بل استخدموها حيث وجب الاخذ بها تمكيناً للفتهم وحذراً من ان يصيبها الوهن اذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم وهم اولو الراي فيهِ وخوفاً من ان يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم بين الامم التي كانت تعاصرهم .

أيجوز لنا ان نتخلف عن السير في طريقهم والاسترشاد بهديهم والعمل بطريقتهم بحجة انهم اقترضوا وبادوا فلا حق لنا في متابعة الرقي ولا يجوز ان نخطو بعدهم خطوة الى الامام لكن من الذي استأجرنا حراساً من الخوف على هذه الوديعة وباي قوة اخضعنا على الوقوف هذا الموقف موقف الاستكانة وقطع الرجاء وفقدان الهمة وانحلال العزائم انقصٌ في الانهام ام قصر في الاجسام ام جهل بأنا من البشر نا كل حقوق الانسان

ليس لنا ان نتمسك بالقديم لقدمهِ وان اصبح عديم الجدوى والاَّ فاولى بنا ان نكف عن الدرس والمطالعة وان نكتفي من كل شيء بما ورثنا عن الآباء لنعيش كما عاش الاولون. غير اني ارجوكم ان تتعلموا الصبر فلا تجزعوا اذا اصابكم مصائب التقدم فتركتم آخر القوم ولا تجزعوا اذا هصرتكم عوامل الرقي فتيتم بين يقف متفرجاً عليكم وانتم كالصور المتحركة الناطقة

لكنها تتحرك بحركة هي عبارة عن اهتزاز الشيء مكانهُ وتنطق بلغة دائرة قد خلت من العلم الذي اصبح دارجاً على السنة المتفرنجين

جزع خصوم مدنيتنا على اللغة العربيَّة وحسبوها ضعاماً سهل التناول والهضم في معد اللغات الاعجمية فاستجازوا من التعريب وصاحوا انا لا نطيق اسماً اعجمياً يدخل عليها

ليست هي تلك اللغة الحافلة بالالفاظ والتراكيب العالية والقول الفصيح المعزوة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهي لم تتأثر ببعض كلمات تدخل عليها في كل عام بل ان هذا العمل مما يؤيدها ويشد ازرها ويرفع سقامها بين اللغات فلا يطمع الاعاجم في اعتبارها من اللغات الميتة

قالوا ذلك يفسد علينا لغة القرآن وما اشدَّ ما اجاب بو عن هذا الاعتراض حضرة الفاضل السيد رشيد افندي فلا خوف على القرآن ما دام في الوجود مسلم ألا ترون ان القرآن محفوظ مصون عند من لم يعرف العربيَّة من المسلمين . اليكم الترك والهند والصين والقوقاز والروسيا تلك امم تعد خلقاً كثيراً من المسلمين لا يعرف الواحد منهم غير لغة امته وهو مع ذلك يحرص على القرآن اشد من حرص الجبان على دمه

أيعجزكم ان تحافظوا على القرآن بينكم وتفسحوا المجال في لغتكم للتقدم باليسار لتنالوا السعادتين وتكونوا من الناجين في الدارين

قالوا العلم نافع قالوا كثير منهُ مخالف للدين قالوا الخسارة تهددنا فلتتقها قالوا هي تخالف الدين قالوا حدثت مستحدثات نسمعها قالوا حرام عليكم ان كنتم فاعلين . من جراء هذا قال الفرنج هنا اناس قوم جامدون وما جمودنا الاَّ من الدين فصحنا مع هذا وقلنا لهم بل انتم قوم ظالمون . ما لنا وللدين نجدهُ في كل امر ولقيمهُ حاجزاً في وجه كل باحث حتى في الامور التي يأمر هو بتناولها . يأمرنا الدين بتعلم ما خلق الله وان نسير على سنة التقدم التي سنها البشر ونحن كل يوم في انحطام بدعوى يعلم الله مقدار بعدها عن الحق والصواب

عليكم بالتقدم فادخلوا ابوابهُ المفتحة امامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود ولا تقدم لكم الاَّ بلغتكم فاعتنوا بها واصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس المعقول . ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتمدد الاشتراك او التجوز ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والجمعة تهددها على السنة العامة وهي لا تلبث ان تدخل على لغة الخاصة . اقيموا في وجه هذا السيل الجارف سدّاً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجين